

المنهج الجينيالوجي بتن تقويض الميتافيزيقا

والممارسة الإبداعية

الباحثة: خيرة بن حراث

إشراف أ. د. أنور حماده

مخبر الفلسفة وتاريخها – جامعة وهران 2

Abstract:

Greek metaphysics emphasized on all what is absolute, then it detested history, its passion for truth and idealism to prevent attention to history; because historical truth is relative in a permanent process; besides Plato there was Aristotle (384 BC - 322 BC). Even if he disagreed, He did not include it in science. He decided that "poetry is closer to science than it is." Thus, the meaning of history became rigid, whereas in Descartes philosophy (1596-1650), it made certainty in the mind and truth in geometry. And classified in the science of memory, and then came Vico and insist on the importance of history until the rose of the philosophy of history by Voltaire.

Keywords: philosophy of history, Metaphysics, Greek philosophy, poetry, genealogy.

الميتافيزيقا اليونانية بتأكيدا على المطلق تمقت التاريخ، فشغفها بالحقيقة والمثل الأعلى منع الاهتمام بالتاريخ؛ لان الحقيقة التاريخية نسبية في صيرورة دائمة¹، والى جانب أفلاطون نجد أرسطو (384 ق.م-322 ق.م) حتى وان خالفه الرأي فقد أحط من قدر التاريخ، ولم يدرجه ضمن العلوم، فقرر أن "الشعر اقرب إلى العلم منه"²، وهكذا أصبح معنى التاريخ جامدا، أما عند ديكارت (1596-1650) كونه جعل اليقين في العقل، والحقيقة في الهندسة، فانه لم يول للتاريخ أهمية، خلافا لبيكون الذي تبنى التاريخ وصنفه ضمن علم الذاكرة، ثم جاء فيكو ومهد الطريق لأهمية التاريخ لتتشكل فلسفة التاريخ على يد فولتير.

بالبحث عن روح التاريخ في العصر الحديث من خلال كانط (1724م-1804م) وهيغل (1770-1831) و كارل ماركس (1818-1883) بلغ العقل البشري أقصى ما يمكن من تصور وتجريد؛ حتى صارت نهاية التاريخ منطقية؛ لأنها محكومة بإرادة متعالية، وهذا ما سماه نيتشه (1844-1900) بالانحطاط، تاريخ الهروب؛ والسبب في ذلك الميتافيزيقا بمواضيعها الفلسفية والأخلاقية والدينية، حينئذ أحدث نيتشه تغييرا في معنى التاريخ السابق، محددًا بذلك منهجا في البحث التاريخي مبينا الأسباب المتحركة فيه، منتقلا من الحس التاريخي إلى التفريق بين الغاية والأصل وصولا إلى صورة التأويل فأحدث قطيعة فكرية مع الميتافيزيقا، أدت إلى قلب الفلسفة هيكلًا ومنهجًا ومهمة، لفتح أفق جديد في التفكير ومنعطف فلسفي منهجي.

فكيف تم تجديد الوعي التاريخي الغربي؟ وما المنهج المعتمد لدراسة الأفكار والمفاهيم؟ وكيف يتم ممارسة هذا المنهج؟، وبعبارة أخرى: كيف تم تقويض الميتافيزيقا ورفض منطق التاريخ وتجاوزه بالممارسة الجينية؟، كيف يمكن إثبات أن المنهج الجيني هو الأساس لإنتاج وإبداع أفكار ومفاهيم فلسفية من خلال ممارسته اعتمادا على نموذج نيتشه؟.

الجينية Généalogie لها دلالات متعددة ومتطورة، فهو قديم الاستعمال لكن أعيد تداوله في الفكر الفلسفي المعاصر والفضل في ذلك راجع إلى الفيلسوف الألماني نيتشه، فهل واصل نفس المعنى الذي كان سائدا من قبل أم غير فيه؟.

ظهر مصطلح الجينية في اللغة الفرنسية خلال القرن الثالث عشر ميلادي، وهو مشتق من الكلمة اللاتينية Généalogie المتداولة آنذاك والمحددة بدورها من الكلمة الإغريقية GENEALOGOS، وتعني كلمة génée في اللغة الإغريقية الأصل ORIGINE بينهما تعني كلمة LOGOS علم، أما فعل GENEOLÓGOS فيدل على ذكر الأصول وتعدادها³، وقد تم تداول الكلمة المركبة في اللغات الأوروبية التي كانت تدل على سلسلة الأسلاف الذين تربطهم قرابة نسبية قد تنحدر من الأصل المشترك الواحد مشكلة شجرة النسب لأسرة أو شخص ما كما كانت تدل أيضا على العلم المتخصص في البحث عن الأصول ونسب العائلات، فهذا الاستعمال بهذا المضمون موجود في كل الثقافات البشرية، وبالأخص في الأسطورة، فمثلا الأساطير اليونانية تحدثت بشكل واسع عن روابط النسب والقرابة التي تربط الآلهة والكلمة المتداولة في هذا السياق هي Théogonie⁴.

وتطور المفهوم خلال القرن 17م ليدل في الثقافة الغربية الحديثة على فرع من فروع علم التاريخ له مناهج خاصة به، مهمته إقامة شجرة الانتماء والنسب، وترجم مصطلح Généalogie في اللغة العربية بعلم الأنساب ومهمته

تتبع ودراسة القرابات والنسل في الأسرة الواحدة أو السلالة الواحدة، ثم اتسع المصطلح تدريجياً في بداية القرن التاسع عشر، فلم يعد مجال دلالتها محصوراً في ميدان التاريخ لأصول الأفراد والأسر فحسب، بل امتد ليشمل تاريخ تطور الحيوان والمؤسسات والأفكار، وهذا ما ظهر مع العالم البيولوجي الإنجليزي شارل داروين "1809-1882" من خلال نظريته عن أصل الأنواع الحية وتطورها، وكان لها تأثيراً على الفكر الغربي في منتصف القرن 19م، ومن المرجح أن نيتشه تأثر بها فكتب كتابه "جينياولوجيا الأخلاق" الذي نشر عام 1887، فكان له الفضل في تداول المفهوم في الحقل الفلسفي المعاصر،⁵ وظهور بداية جديدة في الخطاب الفلسفي المعاصر نظراً لتغير دلالة المفهوم مع نيتشه.

وبعدئذ أصبح معنى الجينياولوجيا في الخطاب الفلسفي عموماً تتبع أصول موضوع ما أو فكرة، وتقديم عرض تاريخي متسلسل لظهوره ونشأته وتطوره، ليس الغاية منه تبريره وإضفاء طابع المعقولة والمشروعية كما كان سائداً، وإنما انتقاده وإبراز طبيعته النسبية لغاية الخط من قيمته المعطاة له؛ لأن "الجينياولوجيا لا تقيم الأسس، أنها لا تؤسس، بل على العكس من ذلك إنها تقلق ما تعتقد الميتافيزيقا ساكناً وتفتت ما تظنه موحداً، تظهر التنوع في ما يبدو منسجماً"،⁶ وهكذا فالجينياولوجيا ليست تبعا وعرضاً لمختلف الأنساق الميتافيزيقية لتقويضها، كما أنها ليست إثباتاً لمعنى أول أو غاية أولى، وإنما هي إعادة بناء مختلف المنظومات الفاعلة، وإثبات للأولويات والأسبقيات التي أعطيت لمعنى على آخر، إنها وقوف عند الاختلافات والفوارق المولدة للمعاني".⁷

خلاصة فإن للجينياولوجيا ثلاث دلالات تطورت تاريخياً، وهي أولاً دراسة سلسلة الأنساب والأسلاف والسلالات العرقية وهي فرع من فروع المعرفة المساعدة لعلم التاريخ عند المؤرخين، وثانياً فهي تدل على تتبع أطوار نشوء الأنواع الحية ومراحل تطورها، وهذا من اختصاص علم البيولوجية، أما ثالثاً فإنها نوع من التفكير الفلسفي النقدي يثير تساؤلات عن أصل نشأة القيم الأخلاقية، والذي دشّنه نيتشه وخصصنا الحديث عنه، وقد تولّد عنه جينياولوجيا الأفكار الممارسة في الفكر الفلسفي المعاصر، إذا إن دلالة المصطلح أصبحت وظيفتها التنقيب والتقصي التاريخي في حقل الاستنساب، مما يجعلها نقدية، غايتها تبيان أن الإنسان متناه ودعائمه الأخلاقية والثقافية تاريخية ونسبية.

يتطلب المنهج الجينياولوجي شروطاً ومراحل أساسية أشار إليها نيتشه في كتابه "إنساني مفرط في إنسانيته" و"جينياولوجيا الأخلاق"، عندما أكد على ضرورة التحرر الكبير للعقل المستعبد بالواجبات والقيم القديمة المبهلة أي زعزعة الروح، ليصير العقل حراً ويزداد تحرراً إذا وضع في ذهنه أن الفضائل مجرد أدوات يتحكم فيها الإنسان،⁸ كما يجب عليه أن يتحرر أيضاً من الأحكام المسبقة الدينية أو الأخلاقية أي التحرر من وهم الحكم الأخلاقي والديني المسبق والتوضع وراء الخير والشر؛ لأنه ليس هناك حقائق أخلاقية ودينية لان الأخلاق علم أعراض،⁹ زيادة على ذلك التحرر من روح العصر وثقافته وذلك لتحقيق أكبر قدر من الموضوعية، فالأحكام تتم من الخارج بمعزل عن

الآراء المسبقة. يقول نيتشه: "نسمي مفكرا حرا ذلك الذي يفكر بطريقة مخالفة لما كنا نتظره منه، بسبب أصله وسطه حالته ووظيفته أو بسبب الآراء السائدة في عصره"،¹⁰ وهكذا فإن طبع المفكر الحر التحرر من التقاليد، كما يريد البراهين على عكس العقل المستعبد الذي يريد المعتقدات ويقوم على الإيمان أي "الاعتقاد على مبادئ فكرية مجردة من الحجج".¹¹

من بين الآراء المسبقة نجد الأخطاء الأربعة الكبرى للعقل، أولها عدم التمييز بين العلة والمعلول، وهو أخطر الأخطاء وأكثرها قدما ومعاصرة مثلا اعتبار الفضيلة سبب السعادة، وثانيا يجب تجاوز خطأ سببية غير مؤكدة بالبحث عن مبدأ السببية في الشعور وتحديدًا في الإرادة أما خطأ العلل الوهمية فإن الفيلسوف لا يتجه إلى العلة مباشرة وإنما إلى ما يصاحبها ويعدّها علة أساسية فيبتعد الباحث عن الأسباب الحقيقية نظرا للتعود على بعض التأويلات السببية، ثم أخيرا خطأ التفسير النفسي لما سبق، حينما يسعى الإنسان إلى الخروج من المجهول إلى المعلوم بسبب الخوف فيؤمن بالتفسيرات التي تطمئن وتريح فكل علة يجب أن تكون معلومة ومريحة غير مجهولة ولا غريبة،¹² وبعبارة موجزة يجب التحرر من التفسيرات الميتافيزيقية الدينية والأخلاقية السائدة لأنها تقدم له فيضا من المعنى في الأشياء وتشعره بعدم المسؤولية، على عكس "التفسيرات المادية والتاريخية التي تؤجج تحمسه للحياة ومشاكلها".¹³

بعدما يتحرر العقل من الأثقال والأوهام التي جعلته جملا يصير أسدا محطما للأصنام انطلاقا من الشك والنقد، وفي هذا الصدد يقول نيتشه: "إنني اعتقد أنا أيضا انه لا احد قد نظر إلى العالم بشك في عمق شكّي"،¹⁴ وفي نفس السياق يقول أيضا: "إنني احتج ضد هذه الفكرة بقرف وانزع عنها كل ثقة"،¹⁵ يعني ذلك عدم الإيمان بفكرة البدهة والوضوح فثلا اعتقد اغلب الفلاسفة على أن الأخلاق أمر معطى بديهي لا يقبل الشك، وهذا ما طرحه نيتشه بقوله: "كانت قيمة القيم أمرا معطى واقعيًا بمنأى عن كل شك وتساؤل. فقد أضفي على الطيب قيمة أرفع من القيمة التي أضفيت على الخبيث دون أن يتخلل ذلك الإخفاء خردلة من الشك"،¹⁶ بالإضافة إلى الفضول والظنون حول الأحكام المسبقة التي تدفع إلى المجازفة والمقارنة والتمييز بين الشعوب والعصور وتراتبية الناس، ويترتب عن ذلك تحديد مواطن الخصوصية في المشكلة، وتحول الأجوبة إلى أسئلة جديدة، ثم طرح الفرضيات المشكلة للموضوع، التي تتطلب حرية التعبير واللغة الخاصة أي المفاهيم المتعلقة الخاصة بالميدان.¹⁷

لكشف القيم وإبراز قيمتها وإعادة تقييمها لا بد من البحث عن الأسباب الخفية المتحكم فيها، وهذه مهمة فلاسفة المستقبل أصحاب العقول الحرة تتطلب الجرأة الفكرية والشجاعة النفسية والقدرة على المجازفة، وأيضا المقارنة لطرح قضايا جديدة بنظرة نقدية حيث يصرح نيتشه مؤكدا على ضرورة "التجوال في صقيع الأخلاق تجوالا يطرح كمية من المشكلات الجديدة التي ينظر إليها بأبصار جديدة"،¹⁸ فالتجوال يساهم في اكتشاف أنماط جديدة وقضايا جديدة مختلفة تمتاز بالنظرة الثاقبة واللاتحيز، والوعي التاريخي لتطور القيم،¹⁹ كما يجب أن تتميز الأفكار بالنضج

والوضوح والصلابة والإتقان، وأيضاً الامتزاج والتداخل وتكون اللغة واضحة والمفاهيم دقيقة، "تلك هي وسيلة التفكير الوحيدة التي يخلق بالفيلسوف أن يتبعها"،²⁰ وهكذا يمكن "اعتبار الحقائق البسيطة والمحتملة المكتشفة بمنهاج صارم أسى من الأخطاء البراقة الموزعة للسعادة التي مصدرها قرون وناس لهم عقل ميتافيزيقي وفنان".²¹

فضلاً عن ذلك يجب اليقظة والتنبه إلى افتراضات مبنية على الفراغ، بالاعتماد على الوثائق "اللون الرمادي" أي ضرورة المعرفة التاريخية للنصوص،²² وذلك عن طريق فقه اللغة أي الفيلولوجيا لدراسة النصوص القديمة كما هي في أصلها الأول وبدايتها الأولى لكشف أسباب نشأتها وظروف تشوّه معناها الأصلي وتحديد الإرادة المتحركة فيها والمتخفية من وراءها أي نزع القناع، ومن هنا أكد نيتشه على الحس التاريخي الذي غاب عن الفلاسفة وبالأخص الانجليز، بحقدّمهم على فكرة الصيرورة وتجميد القضايا بتجربتها من تاريخها، فطريقة تفكيرهم منافية للتاريخ، كما أكد على ضرورة الاعتماد على الاشتقاق اللغوي في دراسة المفاهيم والأفكار،²³ بقوله "ثم ما لبثت بعض الأمور المتعلقة بتريتي التاريخية والفيلولوجية وهي لا تخلو من بعض الفطنة الفكرية الحساسة بالنسبة للمسائل النفسانية بشكل عام".²⁴

تكن غاية الجينولوجيا في الاستخفاف بالحفاوة التي يحظى بها الأصل، فقد قال نيتشه: "فهم الأصل يحد من شأن الأصل"،²⁵ حينها يدرك أن القيمة المعطاة للأصل مجرد قناع يحتاج إلى تأويل، "ومعنى البحث في الأصل هو العودة إلى وراء لإلقاء النظرة التاريخية على ماهية الشيء للحصول عليه وهو في نقائه الأول"،²⁶ تساعد على الكشف عن تحول الماهية أو الظاهرة وأشكال التنكر، الجينولوجيا لا تقوم على تصديق الميتافيزيقا وإنما إصغاء للتاريخ، فليست بداية الأشياء وأصولها كاملة، والبحث عن الأصل معناه في الأخير الشروع في إمطة اللثام عن هوية أولى، وبعد العودة إلى الأصول الأولى نقوم بالتحليل والتفكيك يتبين لنا القوة المتحركة في هذا الأصل.

الجينولوجيا تحليل للأفكار لاكتشاف القوى الفاعلة وتفسير النشاطات الفعلية، حيث يجب البحث عن القوى المستولية على الأفكار وأيضاً الإرادة التي تعبر عن نفسها فيها وتخفي فيها في نفس الوقت، فتصبح بحث عن استراتيجيات الهيمنة، وهذا كله لعبة إرادات، "والتاريخ عنده ليس تقدماً لعقل كوني وإنما لعبة الانتقال من سيطرة إلى أخرى"،²⁷ وهذا ما ينطبق على العلم، "فالعلم هو الآخر يتنقع خلاف قناع الموضوعية التي يخفي وراءها رغبات ميتافيزيقية وأخلاقية ودينية".²⁸

من خلال تحليل الأفكار تظهر لنا حقيقة الأشياء التي كانت تختفي وراء الأقنعة، هذا ما كان مجسداً عند سيقموند فرويد اعتماداً على منهج التحليل النفسي الذي يكشف عن الكامن المتمثل في المكبوتات؛ وعليه فإن الجينولوجيا تسعى إلى نزع الأقنعة وإظهار الحقيقة، وبما أن وظيفة الجينولوجيا نقدية؛ لأنها تقدر قيمة الأصل، وكذا الخطاب التاريخي لا يعبر عن حقيقة مثالية، بل هو خدمة سلطة ذات مستوى منحط أو رفيع؛ إذن "قراءة التاريخ

مرهون باكتشاف الأفعنة والكشف عنها لاسترجاع الاستخفاء الذي كان وراءه كانكشاف²⁹، فالعودة إلى الورا من أجل تقصي الأسباب الحقيقية الخفية للقيم وكذا معرفة ظروف ولادتها وكيفية تشوّهها عبر التاريخ، وعليه فإن الجينولوجيا كشف وتعربة ونزع الأفعنة لتحديد قيمة القيم والقوى المتحركة فيها ومن ثم إبراز نوعية النموذج المنتصر ونتائج الواقعية حضاريا وثقافيا وفكريا.

انطلاقا مما سبق عرض نيتشه منهجا جديدا في الفلسفة النقدية تهدف إلى إعادة النظر في جميع القيم السائدة في الثقافة الغربية الحديثة أي إعادة تقويمها وإبراز طبيعتها، ولممارسة وتطبيق المنهج الجينولوجي لابد من الاعتماد على المراحل الآتية:

1- العودة إلى الورا: (فن التفسير) وتعني تتبع مراحل نشأة المفاهيم والقيم والتطور دلالتها لا من حيث تسلسلها المنطقي والعقلاني كما حدث مع هيغل، بل على اعتبار أن القيم الأخلاقية والأفكار ليست لها أصولا ثابتة متعالية خارجية، وإنما هناك شروطا واقعية وجودية مرتبطة بمطالب الحياة والمصالح الشخصية كامنّة وراء إنتاج المفاهيم وتطويرها عبر العصور، فالغاية من الوقوف عند البدايات والأصول ليس لكونها حقيقة الحقائق وإنما كنوع من الخطأ، وبهذا تصبح الجينولوجيا العودة إلى بداية التاريخ أو الأصل والميلاد لكشف أسباب نشأته. العودة إلى الورا بضع درجات والتحرر من الميتافيزيقا، وذلك بفهم التبرير التاريخي للحقائق بقدر فهم تفسيرها النفسي، فائدة الحركة إلى الورا هي اكتشاف ما حققته الإنسانية من خلال النقد، أي العودة إلى منطلق الحلبة أي العودة إلى البدايات الأولى والأصل الأول.³⁰

يجب تصحيح النصوص والتحدث إليها وتفسيرها تفسيراً فيلولوجيا أي فهم ما يقوله الكاتب وهذا ما عجز عنه العصر الوسيط، "لم يكن فنان الكلمة متواضعا كفاية لكي يؤمن بان ما يفعله ليس سوى تسمية الأشياء كان على العكس من ذلك يتصور انه بتلك الكلمات يعبر عن المعرفة السامية للأشياء"³¹، يجب الانتباه إلى الخطأ الكبير الشائع وهو الإيمان باللغة³²، فكل نص له معناه الأصلي لابد من فهمه عن طريق التأويل والتفسير الفيلولوجي، إذ "لم تكتسب كل العلوم استمرارية وثباتا، إلا حين بلغ فن القراءة الجيدة أي فقه اللغة ذروته"³³ فيجب التأثر بالصميم أثناء القراءة، والاعتماد على التأويل أي فن التفسير من خلال "رفع القراءة إلى مرتبة تجعلها فنا من الفنون".³⁴

يجب أن يكون التفكير فنا دقيقا لإثبات سلطته غير متأثر بالظروف المعرّقة له، لكي يزداد العقل العلمي إلحاحا ويتجه نحو العلوم الطبيعية والتاريخ متجاوزا الميتافيزيقا،³⁵ كما ينبغي إن يمتاز بالذوق السليم والموضوعية، وأيضا الفضول والشعور المرهف بالتعاطف والحفاظ على التوازن، وكذا الدفاع عن الحياة والقضاء على كل الاستنتاجات التي تنفيها وتخط من قيمتها.³⁶

لكل مفهوم جذره اللغوي يتوجب تقصيه لتبيان القوة المتحركة فيه والمعنى السائد ومدى تطوره وتغيره عبر التاريخ؛ وعليه فإن العودة إلى البدايات ليس لاستعادة جذور الهوية والتراث، وإنما للتحطيم والهدم من أجل إنتاج اختلافها، وهكذا يتفكك الأصل بعد أن كان مجرد ذريعة أو سوء فهم ليس إلا مدخلا إلى العمق في فلسفة الأعماق، "إن كل عادة خرافية تولدت عن حادثة أسيء تأويلها تنتهي بان تفرض تقليدا يكون من حسن الخلق إتباعه والتخلص منه يكون خطيرا مضرا بالجماعة أكثر من الفرد"،³⁷ ويجب التأثر بالصميم أثناء القراءة، والاعتماد على التأويل أي فن التفسير من خلال "رفع القراءة إلى مرتبة تجعلها فنا من الفنون".³⁸

2- النقد والجدل الاختلافي: (فن التقويم) إن فلسفة نيتشه هي إعادة تقويم القيم وقلبها، بالسعي إلى تجاوز الميتافيزيقا في مواجهة العدمية الأوروبية التي أراد التغلب عليها انطلاقا من الجينولوجيا، نقد الغرب وقلب الأفلاطونية ونقد العقل والفن والتأويل، ويعد هذا قلب للميتافيزيقا الغربية³⁹، وحتى يتم هذا لابد من أن تكون فلسفة المعنى والقيم نقدية، ولتحقيق ذلك لابد أولا من إقامة جينولوجيا للعدمية، من خلال مظاهرها الثلاث الإنسانية وهي: الحقد، والوعي الشقي، والمثل الأعلى الزهدي الذي يعد تركيبا وتصعيدا لهما، ويهيئ هذا التحليل التاريخي والسيكولوجي للعدمية القيام بقلب شامل وجذري للمثل والقيم العليا للغرب التي يدرجها نيتشه تحت مقولة الميتافيزيقا أو الأخلاق، من هنا نفهم الطابع النقدي للعمل الجينولوجي".⁴⁰

استمدت الجينولوجيا طبيعتها النقدية من النقد الكانطي، لكنها في الأخير ارتدت ضده، "فأحد الحوافز لعمل نيتشه فيما يقول دولوز هو أن كانط لم يقيم بالنقد الحقيقي؛ لأنه لم يعرف أن يطرح مشكلته باصطلاحات القيم"،⁴¹ فهو لم يطرح قيمة الحقيقة ولا أسباب خضوعنا للحقيقي، وعليه فانه دوغمائي، بينما عند نيتشه تصبح فلسفة القيم هي الإنجاز الحقيقي للنقد وصنع الفلسفة بضربات المطرقة أي "ضربات مطرقة المعرفة التاريخية"،⁴² ونقد الأصنام الأشد وثوقا و"ضربها هنا بضربات المطرقة"،⁴³ ولذلك يفيد فعل النسابة معنيين وهما: الانتساب من خلال إرجاع الفكرة إلى جذورها كوجهة إلى الوراثة والماضي، وهذه وظائف الفيلولوجيا التي تمارس القراءة الحرفية، أما النسابة فهي متصلة بعلاقتها مع الذات الإنسانية ومساءلة الأصنام التي كانت عبارة عن يقينيات، فتصبح مطرقة الفلسفة تحطيم الزائف والأجوف، "إذن الجينولوجيا هي بمنظار فيلولوجي بحث المشاكل بحثا مفككا للغة عبر التاريخ"،⁴⁴ مؤسسا على تحليل نقدي للنصوص.

إن آلية الراجع Resonance بالتوجه إلى الوراثة حيث تجعل الجدل والتأويل يسير قدما، فسؤال الجينولوجيا: عمن تصدر الأحكام والقيم؟، من أجل رفض شرعية الجدل الذي يدعي قول الحقيقة ومنح الأولوية للكائن البشري الذي يشك، فيفكك التاريخ الميتافيزيقا من جذورها، على عكس الديالكتيك الهيجلي،⁴⁵ إن الجدل النسقي يقوم بعمل تراكمي، يجمع في التاريخ شكل هرمي مغلق؛ يندرج ضمن منطق الجدل الهيجلي القائم على الوحدة والكلية، حينها يسود

منطق الشبيه ويختزل الاختلاف، وعلى العكس تماماً فإن الجينياولوجيا اختلافية منطقها البحث عن الأصول، لا أحادية الأصل لأنها تدخل مع قوى متعددة، فيضع نيته مكان الجدل السلبي عنصر الاختلاف العملي، وعلى إثر هذا تتعامل مع الحقيقة كقيمة.

إن نتيجة القيم السائدة هو العدمية؛ لذا يجب قلب كل القيم دون مراعاة أصولها الأولى المتخفية وإعادة الاعتبار للإنسان خالق القيم، وذلك من خلال نقد القيم وإعادة طرح قيمة القيم؛ لمعرفة الأسباب التي أحدثتها وشوحتها،⁴⁶ لهذا يضع نيته الحس التاريخي "وهو العلم الذي لا يستند إلى مطلق ويفلت من قبضة الدين والميتافيزيقا ليكون الأداة المفضلة للجينياولوجيا، انه العلم الذي يحو كل التقديسات التقليدية بغية تحرير الإنسان وعدم الحفاظ على الأصل الذي يتعرف فيه الإنسان على نفسه"،⁴⁷ عندئذ يصبح موضوع الحس التاريخي هو التاريخ الفعلي الذي تتحكم فيه صراع السلطات، فلا يخضع للعناية الإلهية أو العلة الغائية، وبالتالي رفض "نمط التاريخ الذي يكتب من أجل اختزال التنوع الزمني ورده إلى كلية منغلقة على ذاتها"،⁴⁸ من هذا المنظور ظهرت الجينياولوجيا كفن لقراءة تاريخ الأفكار، لتصبح فيما بعد "منهجية في البحث تعمل على الكشف عن توارى المفاهيم واختفائها، فرضتها الضرورة الناتجة عن تحطيم الآليات الكلاسيكية تكريساً للنقد المزدوج: نقد الفلسفة كمحتوى ونقد المنهجيات المتعالية كإستراتيجيات"،⁴⁹ ومنه فإن الجينياولوجيا هي إعادة تقييم القيم وقلبها اعتماداً على التفسير والنقد والتأويل.

إن عمل الجينياولوجي هو إعادة التقييم واختراق الأنساق الدغمائية المعتمدة على أصنام الفكر، فهو لا يهتم بالتطابق والهوية وإنما بالضرورة والاختلاف، وبعد تحليل وتفكيك هذه الاختلافات نصل إلى أن التاريخ صيرورة مستعصية على المعرفة الإنسانية، أما المعنى فيضيفه الإنسان وليس الإله، ففي نظر نيته فإن الإنسان الذي يخدم سلطة متعالية هو إرتكاسي عديم، غير أنه من خلال النفي المضاعف يمكن تجاوز العدمية، أي نفي القوى الارتكاسية.⁵⁰

3- التأويل: (فن التشريع) لا يمكن معرفة أي معنى لأي ظاهرة أو أي شيء إلا إذا تعرفنا على القوة التي تملك الشيء أو تسيطر عليه أو تختفي فيه لتعبر عن نفسها فيه، والتاريخ هو "تعاقب القوى التي تستولي عليه، وتعايش القوى التي تصارع من أجل الاستيلاء عليه، كما أن الموضوع ذاته، والظاهرة ذاتها، يتبدل معناهما وفقاً للقوة التي تستحوذ عليهما"،⁵¹ وهكذا تتعدد المعاني، فيصبح التفسير فناً يخترق الأقنعة لأن الأصل لا يظهر في البداية ولا يمكن أن يتحدد إلا في علاقاته بالقوى العليا، إلا أن نيته يؤكد أن بعض الترجمات تكون نيتها سليمة إلا أنها تزيف الأصل؛ وذلك راجع في نظره إلى عجزها عن فهم المعنى العميق.⁵²

على هذا الأساس يصبح البحث عن أصول القيم كشف عن الأقنعة دون بلوغ الحقيقة؛ لأن تاريخ الأفكار لعبة لا نهائية من التأويلات تختفي وراءها دائماً إرادة القوة التي تفرضها، فالقيمة ذاتية نابعة من إرادة القوة WILL

TO POWER، إن المنهج الجينيولوجي يعتمد على التحليل التاريخي النقدي المقارن، وأيضا التفسير السيكلوجي والفيزيولوجي للقيم، فالملاحظة النفسية وفن التحليل والتنظيم النفسين ضروريين للتفسير،⁵³ كضرورة التفسير الفيزيولوجي الذي من خلاله ارجع نيتشه سبب سلبية المواقف الفلسفية إلى العجز عن الفعل، زيادة على ذلك فقد اكتشف نيتشه أن أصل القيم الأخلاقية حقد العبيد على السادة والخوف من القريب والغرائز القوية، ونظرا لعجزهم على الفعل المباشر اتجه الإساءة تم كتبها كأثر ولم تنس، ثم تطورت إلى انتقام خيالي وحقد دفين، حيث لجأوا إلى الحيلة والمكر لقلب القيم من أجل السيطرة على السادة، حينها انتصرت القوى الارتكاسية بفعل ثورة العبيد التي بدأت مع اليهود، وعليه فإن الخوف أصل الأخلاق.

في هذا السياق الجينيولوجي يعد التراكم في ميادين تاريخ الفكر ضربا من العبث؛ لذا أصبح من الضروري إبراز ظاهرة الانفصال في التاريخ، "ولن يتحقق ذلك إلا بقلب القيم السائدة برفض القيم الميتافيزيقية الفلسفية أو الدينية لتصبح إنسانية طبيعية،"⁵⁴ واختلاف المسافة داخل الأصل في البدايات الأولى يجعل العالم تعبيرا عن الصيرورة، وهنا نلاحظ تأثره بأنكساغوراس وهيرقليطس، الحواس تكشف عن الصيرورة أنها لا تكذب هذا ما عبر عنه هيرقليطس حينما أكد على أن العالم الحقيقي سوى وهم وكذب تم إضفاؤه عليه،⁵⁵ لأن "كل شيء ينتج عن الصيرورة"،⁵⁶ أي لا وجود لشيء في ذاته ثابت بل الحقيقة نسبية. الفلسفة التاريخية اكتشفت أن أساس تعارض الثنائيات الميتافيزيقية هو خطأ العقل، فكل مفهوم تم تصعيده حيث لم يعد يظهر العنصر الأساسي إلا بعد الملاحظة الدقيقة "إن الإنسانية تحب أن تطرح من بالها أسئلة الأصل والبدايات"،⁵⁷ أي أن هذه الدراسات منافية للتاريخ كونها سطحية.

ومن هذا المنطلق لابد من تأويل كل الخطابات، فالتأويل إبداع يفتح الآفاق لكشف الأسباب الخفية والقوى المتحركة في خلق القيم، يجب على الذات أن تخلق القيم بإرادتها من خلال عملية التأويل؛ فالمعنى ليس مطلقا وإنما يتعدد نظرا لتعاقب المعاني بفعل صراع التاريخ وصيرورته؛ لهذا يمكن للإنسان يتجاوز العدمية بالإبداع، إذا اعتمد على إرادة القوة المتحركة بدورها في عملية التأويل؛ لأن ما يتستر وراء كل معنى هو إرادة القوة، والجينيولوجيا تحاول أن تربط معاني الواقع بالمنظورات أو التطلعات التي تعطيها قيمه، وهي تدرك التطلعات من حيث هي إرادات قوة متفاضلة،⁵⁸ ومنه فإن الجينيولوجيا هي "العلم الذي يتحرى أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية ومهمته طرح المشاكل الاجتماعية المعقدة".⁵⁹

وضع أحد الباحثين ثلاث مستويات للنقد الجينيولوجي وهي أولا المستوى السيميولوجي حيث يتم تفكيك شيفرات النصوص والخطابات كونها مجموعة من العلامات والرموز، بإرجاعها إلى القوى التي صدرت عنها أو استعملتها أو استحوذت عليها، ثم ثانيا المستوى التيبولوجي حيث يمكن تقويم القوى انطلاقا من اعتبارها فاعلة أو منفعة، بعد ترتيبها وتنظيمها ضمن نموذجي القوى: الارتكاسي والفاعل، وأخيرا المستوى الجينيولوجي "وفيه يتم الصعود بتلك النماذج إلى

أصولها التفاضلية وتحديد قيمتها... يسعى النقد الجينولوجي بما هو نقد للميتافيزيقا من الداخل إلى تفكيك الإجراءات الكبرى للخطاب الميتافيزيقي"،⁶⁰ انه تفكيك للشائيات الميتافيزيقية.

تداخل الجينولوجيا مع الأركيولوجيا في وممارسة الحفريات بضربات المطرقة، حيث تهتم الجينولوجيا بالاستفسار عن الشروط الخارجية والأسباب المتحركة في الأفكار، فإنها تدفع إلى ضرورة قراءة النصوص ودراسها وفك رموزها وتأويلاتها، وبما أنها تهتم بالتأويل والنقد والتفكيك استقت منها الكثير من الاتجاهات الفلسفية المعاصرة طريقتها في النقد والتحليل، فعند هيدغر يظهر الحس التاريخي، أما عند سيقموند فرويد فإن التأويل راجع إلى دوافع لا شعورية تحتاج هي أيضا إلى تأويل، والعملية لانهائية تؤكد استحالة الوصول إلى حقيقة أولى، ويظهر منهج النقد والتحليل عند الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو (1926-1984) بتأكيده على أولوية التحليل الجينولوجي بطرح تساؤلات نقدية حول التاريخ، والنتيجة التي توصل إليها هي أن التأويل لا يصل إلى الدلالة الأصلية المتخفية داخل الفكرة، فالاختلاف الجوهرى بين "نيتشه" و"فوكو" عموما هو أن الأول لا يؤمن بأصل قط، بينما يؤكد الثاني على الإيمان بأصل ما، هو مصدر مسبق وموجود لكن لا يمكننا تحديده، لأن الإمساك بكيونة الإنسان متعذرة ولا يمكن البرهان على هذه الحقيقة بالبحث عن المصدر؛ وبالتالي الاعتراف بالفشل في إيجادها.

تشارك الجينولوجيا مع الأركيولوجيا في اعتمادهما على الحس التاريخي؛ ذلك أن الحفريات نتمتع في الحقائق وتفكيكها لإبراز أصلها الأول⁶¹، ويتم التحليل الحفري وفق عمليتي النقد والجينولوجيا، فالنقد يحلل سلسلة الخطابات والجينولوجيا تحدد الأسباب المتحركة فيها⁶²، ومن مبادئ التحليل الحفري تحليل اختلافات الخطاب ووجوهه، وسعي إلى تحديد أنماط وقواعد الممارسات الخطائية التي توجه الآثار الفردية، وأخيرا وصف منظم لخطاب يجعل منه موضوع⁶³، وإذا أرجع نيتشه أصل القيم إلى إرادة القوة فان فوكو يرجعها إلى السلطة.⁶⁴

خلاصة فان الإنسان لن يبلغ الحقيقة لأنها تخفى عنه، مما يجعل البحث مستمرا لاتصاف التاريخ بالضرورة والأحكام بالنسبية، ليكشف الجديد الذي يسعى التفكيك إليه من خلال استذكار الاختلاف المنسي، إن الجينولوجيا بحث الأسباب بممارسة التأويل والدليل على ذلك تطور هذا المفهوم في فكر نيتشه من: "إنسان مفرط في إنسانيته" فكان عبارة عن حس تاريخي ثم في كتابه "جينولوجيا الأخلاق" أصبح عبارة عن تفريق بين الغاية والأصل، وأخيرا في "إرادة القوة" يظهر في صورة تأويل، كما أن جميع القيم نسبية، هذه فقط الحقيقة المطلقة الجديدة؛ لذا يجب على الفيلسوف أن يبحث عن الحقيقة المتخفية وراء الأقنعة جينولوجيا، وهذه العملية تبقى مستمرة.

أخيرا فان المنهج الجينولوجي يهتم بتقييم القيم والحقائق التاريخية، ويتم هذا بالاعتماد على مراحل، أولها الحس التاريخي حينها ندرك أن الأصل والمعنى في صيرورة، وليس كما كان يعتقد أنصار الميتافيزيقا بادعائهم أن الحقيقة

التاريخية مطلقة، وثانياً النقد والتأويل حيث يتم بالتفكيك من خلال الجدل الذي يحكم التاريخ الفعلي، فن خلالها نجد أن التاريخ لعبة إرادات، حيث تختفي الأفعى وراء القواعد والأحكام، لذا يجب على الإنسان أن يتحرر من هذه اللعبة، بفهمها والسيطرة عليها من خلال صنع قيم هو خالقها وفق ما تمليه عليه إرادته القوية، وان ينقد كل ما يأتيه من الخارج وإعادة قلبه وتقييمه وفهم أسبابه، والغاية من هذا كله هو تجاوز العدمية وتحقيق الإبداع والتجديد من خلال إعادة إنتاج الأصل كما رأى غدامير.

نستنتج مما سبق بان المنهج الجينيولوجي هو المنهج الشامل الملائم؛ لأنه يشمل العديد من المناهج، كما انه ملائم لدراسة الظواهر الإنسانية بأبعادها الاجتماعية والنفسية والتاريخية موضوعياً، كما يمكن ممارسة المنهج الجينيولوجي على التراث من خلال العودة إلى النصوص القديمة اعتماداً على الحفريات، ومن اجل تقصي المعنى الأصلي نبثق عن المتخفي وراء الأفعى والأسباب المتحركة في ظهور معنى واختفاء معنى آخر، وهذا لا يتم إلا بعملية النقد الذي يكسر الأصل المزيف، والجدل الاختلافي الذي يساهم في تقريب المعنى دون حصره؛ فتصبح القراءات متعددة وإبداعية، وبتتبع العملية التأويلية يضفي كل إنسان قيمه ويسقط كل أفكاره على النص التراثي وفق شروط منها التحرر من سوء الفهم والأحكام المسبقة السلبية؛ وعلى اثر هذه المراحل تصبح الجينيولوجيا مفتوحة تساعد على فتح الأفق لتجاوز العدمية.

الاحالات:

- ¹- النشار مصطفى، من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، قراءة في الفكر التاريخي عند اليونان، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د ط، دس، ص 52.
- ²- نقلاً: المرجع نفسه، ص 52.
- ³- حسيبة مصطفى، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2009، ص 157.
- ⁴- المرجع نفسه، ص 157.
- ⁵- حسيبة مصطفى، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص 158.
- ⁶- المرجع نفسه، ص 159.
- ⁷- عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت، ط 1، 2010، ص 331.
- ⁸- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المؤسسة أفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2002، ص 11-14.
- ⁹- نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قيسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، د ط، د س، ص 57.
- ¹⁰- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر نفسه، ص 128.
- ¹¹- المصدر نفسه، ص 129.
- ¹²- نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قيسي، المصدر السابق، ص 45-51.
- ¹³- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 25.
- ¹⁴- المصدر نفسه، ص 09.

- ¹⁵ - نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، د ط، د س، ص 21.
- ¹⁶ - المصدر نفسه، ص 14.
- ¹⁷ - المصدر نفسه، ص 11.
- ¹⁸ - المصدر نفسه، ص 15.
- ¹⁹ - المصدر نفسه، ص 15.
- ²⁰ - نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيلي، المصدر السابق، ص 03.
- ²¹ - نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 18.
- ²² - المصدر نفسه، ص 15.
- ²³ - المصدر نفسه، ص 24.
- ²⁴ - المصدر نفسه، ص 10.
- ²⁵ - نقلا: بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2004، ص 1، ص 34.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص 35.
- ²⁷ - بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص 36.
- ²⁸ - نقلا: المرجع نفسه، ص 30.
- ²⁹ - المرجع نفسه، ص 36.
- ³⁰ - نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيلي، المصدر السابق، ص 29.
- ³¹ - المصدر نفسه، ص 22.
- ³² - المصدر نفسه، ص 22.
- ³³ - المصدر نفسه، ص 151.
- ³⁴ - المصدر نفسه، ص 17.
- ³⁵ - نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 152.
- ³⁶ - نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 2، ترجمة: محمد الناجي، أفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2001، ص 08.
- ³⁷ - نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 63.
- ³⁸ - نيتشه فريديريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة: حسن قبيلي، المصدر السابق، ص 17.
- ³⁹ - عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 273.
- ⁴⁰ - المرجع نفسه، ص 324.
- ⁴¹ - عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 291.
- ⁴² - نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج 1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 41.
- ⁴³ - نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قبيلي، المصدر السابق، ص 07.
- ⁴⁴ - بن مزيان شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص 27.
- ⁴⁵ - دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1993، ص 250.
- ⁴⁶ - نقلا: عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 305.
- ⁴⁷ - بن مزيان بن شرقي وآخرون، الأنظمة المعرفية للتاريخ في الفلسفة المعاصرة، المرجع السابق، ص 34.

- ⁴⁸-نقلا: المرجع نفسه، ص 145.
- ⁴⁹- فوكو ميشال، جينالوجيا المعرفة ، ترجمة : أحمد السطاتي، عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1988، ص58.
- ⁵⁰- دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المرجع السابق، ص 252.
- ⁵¹- دولوز جيل، نيتشه والفلسفة، ترجمة: أسامة الحاج، المرجع السابق، ص 08.
- ⁵²- نيتشه فريديريك، ما وراء الخير والشر، ترجمة: جزيلا فالور حجار، مراجعة: موسى وهبة، دار الفارابي، بيروت، ط1، 2003، ص57.
- ⁵³- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 39.
- ⁵⁴- صلاح قلنصوة، نظرية القيم في الفكر المعاصر، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2010، ص 158.
- ⁵⁵- نيتشه فريديريك، أفول الأصنام، ترجمة: حسن قبيسي، المصدر السابق، ص 27.
- ⁵⁶- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 18.
- ⁵⁷- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 17.
- ⁵⁸-نقلا: عطية احمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص 334.
- ⁵⁹- نيتشه فريديريك، إنساني مفرط في إنسانيته، ج1، ترجمة: محمد الناجي، المصدر السابق، ص 41.
- ⁶⁰- نقلا: عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، المرجع السابق، ص325.
- ⁶¹- فوكو ميشال، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، المصدر السابق، ص48.
- ⁶²- جعفر عبد الوهاب، خطاب الفلسفة المعاصرة أداؤه واشكالياته، المرجع السابق، ص 27.
- ⁶³- فوكو ميشال، جينالوجيا المعرفة، ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، المصدر السابق، ص 132-133.
- ⁶⁴- المصدر نفسه، ص06.